

إستراتيجية التقديم: قراءة في فطاب المقدمات

د. محمد خرماش *

1. حول المقدمات:

تدخل المقدمات في نطاق ما يسمى بالعتبات أو النصوص المصاحبة والمساعدة للنص الأصلي، مثل العنوان والعنوان الفرعي والتنبيه والاستشهاد والتعليق أو التوقيع وما إلى ذلك. وهي تمثل مجموعة من العلامات التي توظفه وتوفر له مناخا يساعد على بلورته واستيعابه؛ وقد يعول عليها الكاتب كثيرا في جذب

قارئه أو التأثير عليه أو الإيعاز له بما يريد. ولأن القارئ أو الدارس قد يختار في نقطة البداية، فإن تفحص العتبات يمكن أن يساعده كثيرا على فتح طريق رئيسي لمقاربتة النصية. إن العنوان مثلا يجهل النص ويعلن عنه وربما يكون البديل المصغر له، ولذلك حُصت العنونة

أو "علم العناوين" (la titrologie) بدراسات وأبحاث قيمة للكشف عن جوانبها المختلفة بما هي فن خاص ومتقدم له إستراتيجيته وسلطته

وميكانيزماته؛ ولذلك أيضا يقول "ميشيل هوسير": "قبل النص يكون العنوان وبعد النص يبقى العنوان" (1) أما المقدمة أو المقدمات فقد تكون أكثر العتبات تأثيرا واستقلالية، وهي التي تقود القارئ بلطف وسلاسة لتسلمه إلى النص بعد أن تكون قد زودته بما يساعده على مواجهته وفك مغالقه. وربما يعتبرها البعض فنا خاصا أيضا أو جنسا أدبيا مستقلا؛ ولذلك قال بأن "كيركيكار Kierkegaard" مثلا قد كتب عددا من المقدمات لعدد من المؤلفات لم تؤلف قط. (2)

وبهذه الاعتبارات فإن قراءة خطاب المقدمات تطرح عدة مشاكل وعدة أسئلة تتعلق بخصوصياته ومواصفاته ومكوناته ومقاصده وآثاره وعلاقته بالخطاب الأساس، وهل يمكن أن تقرأ المقدمة من خلال النص أو يقرأ النص من خلال التقديم، وهل هما مشتركان في نفس التوجه ونفس الخطاب أم يزيد أحدهما على الآخر في شيء، وخاصة فيما يتعلق بتقديم النص الأدبي الذي يبني خطابه على أساس توظيف التخيل وتوظيف الإجراءات النغوية والأسلوبية والجمالية، ويحتمل عدة قراءات وتأويلات؛ وعندها فهل سيكون تقديمه تقديمًا للأدب أو أدبًا للتقديم؟ فإن كانت الأولى التي قد لا تخلو من الثانية، فمعناه أن الجهد المبذول في التقديم سينصب على تمثيل مكونات النص الأدبي وسبر كوامنه قصد الاستجلاء والاستعراض؛ وربما بنفس الإجراءات والوسائل بالنسبة للمقدم (المبدع) كما هي بالنسبة للمبدع المقدم له، ولكن بنوع من الإستراتيجية المختلفة والمتفاوتة حتماً، لأن ما يهدف إليه المبدع أو الإبداع هو غير ما يهدف إليه المقدم والتقديم. أمّا إن كانت الثانية التي قد لا تسلم من الأولى، فإن التقديم قد يرتبط بالنص ارتباطاً سرياً أو سرياً عميقاً، لكنه سيصطنع لنفسه آليات يشغلها ويشتغل بها من أجل البحث في النص الأصلي عما يسمى بالمادة الجوهرية أو "النخاع المدسوس"، وعندها قد ينتج شيئاً جديداً وبمقومات جديدة...

وهكذا فإن عدة اعتبارات سوف تدخل في التقدير حينما نتناول خطاب المقدمات، وبمراعاتها يمكن التمييز بين نوعية الخطاب ومرجعياته...

2. بنية المقدمات:

فالمقدمة إذن واجهة للنص، وعتبة ضرورية من عتباته، لكنها تثير أسئلة كثيرة فيما يتعلق بتكوينها ووظائفها وعلاقتها به وبالكاتب والقارئ، وبكيفية اشتغالها باعتبارها قيمة مضافة أو خطاباً على خطاب... وقد اختلف في حدها باختلاف المفهوم الذي يعطى لها والوظيفة التي تُسند إليها في مجال التعالقات النصية، حيث يرى "ج جنيت" مثلاً أن المقدمة تشمل كل النصوص التمهيدية الذاتية أو الغيرية التي تشكل خطاباً منتجاً بشأن خطاب يليه أو يسبقه؛ كما يبدو من تحليلاته التركيز على خدمة النص المقدم له وحمايته وتقديمه للقراء. (3) أمّا "هنري ميتران" فيعد المقدمة في الخطاب الروائي على الأقل بمثابة نوع من التوثيق الأجناسي الذي يساعد على ضبط المجريات النوعية. (4) وعليه فالمقدمة خطاب تبصيري لمصاحب للنص و مساعد على فهمه على الوجه المقصود أو المطلوب، ويتم تركيبه بواسطة عناصر مكثفة تشمل إشارات ودلالات متواصلة مع رغبات الكاتب وظروف النص ومقاصد الخطاب وآليات القراءة، درأً لكل جنوح في الفهم أو إشطاط في التأويل. وتكتسب المقدمة فرادتها من كونها تحيل على ذاتها وعلى النص في نفس الآن بمحاولة إقامة مرجعيات أنطولوجية، وتشديد فضاءات متساوقة مع الجوامع النصية والإحالات التناسية، بقصد تضديد توقعات الكاتب وتوقعات القارئ.

3. مواصفات التقديم وتعاثاته:

يمكن القول إذن بأن التقديم كتابة فنية مغايرة لكتابة المتن لكنها قد تكون أصعب منها، لأنها تجمع بين التقييم والتشديد، بمعنى أنها تمثل قراءة مبدئية أولية مركزة ومغرية للمتن، كما تبني خطاباً مقنناً ومستقطباً لقارئ أو قراء بمعارف وأمزجة واستعدادات مختلفة، وهو ما يتطلب كثيراً من المهارة والحنكة في رسم خطة التقديم وتحريك آليات اشتغاله، ولذلك تدعو آن كايويلا "مثلاً إلى أن تفكر المقدمة في نفسها وفي النص معا وفي نفس الآن (5) ولعل تقديم الأشعار أو غيرها، يمثل قراءة افتتاحية للنصوص ومحاولة لوضع الأصبع على بعض أبعادها، كما يمثل نوعاً من الفهم والتقدير لقيم التجربة كلها وفي سائرهما، وهنا تكمن صعوبة الكبرى لأنه ليس بحثاً مستفيضاً أو دراسة مستوفية، لكنه لا ينبغي أن يقل في القيمة عنهما، فهو لا يملك نفس الوسائل أو نفس المساحة أو نفس الطبيعة، ومع ذلك عليه أن يقدم نفس النتائج أو تقريباً، فهو إذن دراسة تقتصر على ذكر الخلاصات والنتائج مع بعض الاستشهادات، وتبقى مصداقيته متوقفة على ما يتمتع به المقدم من رصيد في السوق الثقافية كي يستطيع انتزاع بعض التصنيفات من جمهور المتلقين. وعلى كل حال فالمتعارف عليه في المقدمات الكلاسيكية أنها تحاول تحديد زاوية النظر إلى العمل كما تحاول إبرازه باعتباره ثمرة إنتاج موجه بطريقة ما، وأنه لا بد من تقدير ذلك التوجه؛ فهي إذن تدافع عن النص ضد عدم الفهم وضد التأويلات المغلوطة، كما تحرص على إعادة تداويلته وإبراز قيمه، لكنها تبقى بدورها خطاباً مكتوباً يحتاج إلى قراءة ويحتاج إلى تأويل...

ومن الممكن كذلك أن يحمل التقديم خاصية البيان (manifeste) باعتباره ذا أبعاد تعليمية وسجالية، لكن في اقتصاد شديد. كما لا يمكنه دائماً أن يخلص من شية الأيديولوجيا - وهو إعلام من موقع خاص - التي تضمنه القناعات المؤطرة لإنتاج النص والتوصيات النازمة لقراءته، فيغدو بذلك وكأنه يهدف إلى بلورة نموذج للإنتاج والاستهلاك في نفس الآن، حيث يسعى - حسب تعبير ميتران - إلى استخراج نموذج للإنتاج الذي يتحدث عنه ونموذج لقراءته، على اعتبار أن كل جنس في الكتابة يتطلب جنساً في القراءة، وخاصة إذا كان في الإبداع تجربة خارقة للمألوف تحتم تقديم رؤيتها في التقديم، وإثبات مكانتها وجدواها ضمن الأفق المرتقب. ومن ذلك مثلاً ما يسميه "ج جينيت" بمقدمة المقدمات، أي حينما يتحدث التقديم عن التقديم وينظر له... (6) ويتميز تقديم الإبداع الأدبي بتصريح المتكلم في الزمن الحاضر قصد إدماج المخاطب في المستقبل النوشيك للقراءة، بصيغ توجيهية تضمن تعاونه وتقحمه بهدوء في فضاءات مرجعية مشتركة وهو يستمد سلطته في ذلك من دقته التعبيرية وتحايلاته البلاغية واستراتيجياته التوصيفية، وذلك ما يسميه "ميتران" أيضاً بالقوانين المتحركة في كتابة التقديم. (7) وقد يضطلع التقديم بمهمة الشهادة (monitoire) التي تتضح بالسيرة وبالتوثيق وتحاول إقحام الذات في توجيه الفهم واستشفاف المعنى واتباع الخيط الناظم لكل الإنتاج أو الانتاجات الجامعة، استثماراً لقيمة الذات ووزنها في العملية، والتحاماً مع الآخر المفترض وجره إلى تفاهات مشتركة حول المناطق الصعبة في القراءة وفي التأويل...

وتختلف مقدمة النص الفلسفي عن مقدمة النص الأدبي بأنها قد تمثل جزءاً صغيراً من ذلك الخطاب الخاص، وقد تصبح فضلة زائدة في معرض العرض الفلسفي البحث الذي هو عرض نسقي لا يقبل التجزئ ولا يمكن تضمينه في خطاب استشرافي. مقدماتي سابق، لأنه خطاب كلياتي متعالٍ على الخصوصيات والجزئيات التي تستأثر بها المقدمات وتؤثرها، وهو ما يتنافى مع قانون "الإشباع الدلالي" في البحث الفلسفي (8).

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أن التقديم يتنوع بحسب منطلقاته ومقاصده، كتقديم الناشر وتقديم التنظير وتقديم التوضيح أو التصحيح، وتقديم النقد أو التقويم وتقديم الحوار أو المناظرة وما إلى ذلك...

وكل هذه المواصفات قد تجعل من خطاب التقديم أداة متميزة لتواصل متميز، لأن الأطراف المشتركة فيه تكون متفاعلة ضمناً، ولذلك يحرص على إنجاز سياق خاص في التلطف يؤدي إلى تجاذب خطابي يستهدف التأثير عن طريق تماقد افتراضي بين الفرقاء، ومن ثم يجب التمييز. كما يقول متران. بين "أنا" المقدم و"أنا" السارد مثلاً، لأنهما محفلان مختلفان في النشأة وفي الطبيعة وفي الغرض، ولأن الأول ينزع إلى تشكيل خطاطة الذات والمقصد على خلفية القنوات المتعالة والإقناعات المسوغة التي تعضدها الأسبقية الظرفية الوازنة في معرفة النص وقراءته وتأويله؛ وربما جاز القول بأن القراءات اللاحقة قد تأخذ نقطة انطلاقها من أثر التقديم في اتجاه المطابقة أو المعارضة؛ في حين ينزع الثاني إلى اقتراح عالمه أو عوائمه في نوع من الحياد المزعوم والبراءة المفتعلة تاركاً لمبثوثاته الإيحائية أن تفعل فعلها في اكتساب القارئ وفي تحريك قراءته. (9)

4. استراتيجيات التقديم:

يهدف التقديم إلى استدراج القارئ لعقد صفقة قرائية تبدأ بالترغيب في التعاون وقد تنتهي بالإذعان، ولذلك تكون له آثار توجيهية تحكمية، إذ يُنصب نفسه مرجعاً معتمداً في كثير من الإضاءات اللازمة أو الضرورية في القراءة المجدية. فهو - كما يرى جاك دريدا - "خطاب مساعد" يتضمن الإعلان عن مشروع المتن، كما يتضمن تقويماً أو تقييماً له بحسب النية المبينة فيه، ومن ثم قد يجمع بين التحكيم والتنظير كما يجمع بين البيان والإشهار. (10)

ولذلك قد يكون التقديم بمثابة سند تنظيري ومعرفي أو بمثابة حامل اديولوجي أو فقط بمثابة محطة افتتاحية يدلف منها القارئ إلى أبعاد النص ومقاصده.

ومن المعلوم أن التقديم يتوجه عادة إلى نوع من القراء لهم استعدادات ومؤهلات خاصة تجعلهم قادرين على التعامل مع التقديم ومع ما يقدم له؛ وهم تركيبة معقدة من المعطيات الثقافية والاجتماعية والتاريخية التي لا بد أن يحسب التقديم حسابها في استشراف عملية التواصل الممكنة بين المتن وقرائه، فيقيم خطته في الغالب على تنشيط الحوار المفترض بين أطراف العملية في سلاسة وإغراء لتقريب مستويات التقاطع وتشييد المعاني والمفاهيم المشتركة...

ومن ثم فالكاتب الذي يقدم لنفسه مثلاً هو غير الكاتب الذي يقدم لغيره في صناعة التقديم؛ إذ الأول سيكون كاتباً مزدوجاً أو مضجعاً في شخصه وفي كتابته، لأنه وهو يبدع غيره وهو يقدم ما أبدعه؛ بمعنى أن التقديم وما يقدمه إنتاجان متميزان ولو أنهما لنفس الكاتب الذي يخلق وضعيتين مختلفتين للتلفظ والمفوظ كي يغير عناصر وآليات التواصل المرجو في كلتا الحالتين، وكأنه يبعث بإرسالية تُستقبل على مرحلتين أو في سرعتين: مرحلة التقديم الواعدة التي تقبض وتشوق وتراوغ، ومرحلة النص الذي يكون قد عُرف قبل أن يُقرأ لأن صاحبه يشي به ويفضحه من حيث يريد دعمه وحمايته وتوجيهه. أما الكاتب الذي يقدم لغيره فهو كمن يخطب في حفل تنصيب أو في حملة إشهار لبيع منتج بضمان اسمه وتوقيعه، وفي ذلك بعض النفع له كذلك

لأن في إعطائه الكلمة أولاً اعترافاً بأحقية وأسبقية وتملكه لسلطتها، ولذا فقد يكون صوته بمثابة الظل الذي ينشره على النص الذي سيُعرف من خلال النوافذ التي يشرعها له، وربما زاحمه في السمعة ففطى عليه، وكم من مقدمة اشتهرت أكثر من النص الذي تقدم له...

وفي ضوء هذه الطروحات والقضايا المتعلقة بإشكالية خطاب التقديم سأحاول على سبيل النموذج أن أقرأ مقدمة تحاول أن تمتص من الخطاب الذي تقدم له لتعيد إليه وهي مقدمة الشاعر المغربي محمد الحبيب الفرقاني لديوانه "تهاليل للجرح وللوطن" وهي مقدمة قصيرة نسبياً لكنها ذات صلة وثيقة ومباشرة بالمنظور الثقافي والفني للشاعر، ومتكونة بطريقة تتم عن رغبتها وعدم رغبتها في الالتحام أتمام بالنص الذي تقدم له؛ ولذلك سنتعامل معها كبنيات مستقلة أولاً لمقاربة الخطاب الذي تشبّه ثم نحاول معارضتها أحياناً ببعض النصوص المقدم لها لمعرفة الدسائس الإستراتيجية المهيئة لما تريد أن تقوله دون أن تعبر عنه.

5 قراءة في مقدمة الفرقاني لديوانه "تهاليل للجرح وللوطن":

يقدم الشاعر محمد الحبيب الفرقاني لديوانه "تهاليل للجرح وللوطن" المنشور سنة 1988 (دار النشر المغربية - الدار البيضاء) بتقديم مركز قسمه إلى سبع فقرات مرقمة حاول فيها أن يبدو موضوعياً في طرح مفهومه للشعر ولوظيفته الجمالية والتعبيرية، فعرض في الفقرة الأولى لقدرة الإنسان وموهبته في استثمار الكلمة والحروف وتحويلها إلى "طاقات إشعاعية تخترق المكامن والأغوار" (المقدمة ص3) وبذلك أنتج الشعر الذي له دوره في "صياغة الحياة وفي قيادتها نحو الأسمى" (ص3) وهذا الطرح يذكرنا أولاً بالتعاريف الأدبية التي ترى أن الأدب هو "صياغة هنية لتجربة بشرية" أو أنه "نقد للحياة" وفي ذلك تسليم مبدئي بارتباط الأدب بالحياة وتذكير من طرف خفي بنظرية المحاكاة القديمة التي ترسب عنها في العصر الحديث مفاهيم كالتواقيع والانعكاس والايديولوجيا والالتزام والتمثل وما إلى ذلك، وهو منطلق واضح في هذه الفقرة الأولى من التقديم يشي بالرؤية الفكرية والرؤية الفنية التي يستند إليها التوجه والتوجيه في التقديم وفي الديوان، يؤيدها قوله في الفقرة الثانية: "وقبل أن يكون الشعر غليانا في الذات وتوترا في المدارك وتفتيسا عن مشاعر نفس تحترق الخ، قبل أن يكون الشعر كل ذلك... هو رسالة كينونة الإنسان، خطاب الحياة للحياة..." (ص3-4) ومعنى هذا أن الشاعر مقتنع في تقديمه بأن الشعر القوي يمكن أن يجمع بين البعد الرومانسي والبعد الواقعي فيكون

رومانسيا في واقعيتها وواقعيها في رومانسيته. وهو أمر قد يبدو من الصعوبة بمكان، لكن الشاعر الحصيف قد يجعله مستساغاً ويجعله ممكناً ومقبولاً؛ وذلك يؤسس خطابه الفني الدال. وهذا متكاملاً نظرياً ثانياً في التقديم، قد يفهم على أنه دعوة للقارئ بأن ينظر إلى النص من هذه الزاوية، أو ادعاء من الشاعر بأنه سيلتزم بذلك، لكنه يأخذ على كل الأحوال بقدر من الحياد الذي يحفز على الوثوق به أو على توقع شيء من حقيقته وتحققه في النص المقدم له. وتلك إستراتيجية طبيعية ومناسبة في بناء الفضاءات المشتركة في مثل هذا الخطاب المقدماتي.

وفي الفقرة الثالثة من التقديم يتحدث الفرقياني عن ضرورة تفاعل الشعر مع الحياة وبالتالي مع الأزمة أو الأزمات المتواجدة، (وتجدر الإشارة إلى أن الفرقياني كان محسوباً على اليسار المعارض في السبعينيات التي يطلق عليها سنوات الجمر والرصاص) وبالتالي فالشعر في نظريته أو نظريته التقديمية ينبغي أن يعكس صورة العصر المرتبك؛ يعكسها باضطرابه وغموضه وملابساته اللغوية والفنية والرؤيوية... وحتى باختلاط الحابل والنابل فيه وتمازج الفث والسمين... وأجمل شيء في الشعر - على حد قوله - أن يكون تعبيراً حياً عن واقع حي، أن يعيش الحدث في عمقه الإنساني، ثم ينقله إليك أو ينقلك إليه في جماله الإنساني، وهذا يفرض في القصيدة ثلاث عقليات: الاندماج في الحدث، التمثل الوجداني، الإخراج المشحون للصورة (ص5) وفي ذلك يتفاضل الشعراء عنده ويتفاوتون.

وعلى أي فمقولة ربط الشعر بتجربة الحياة مقولة قديمة، ومن السهل القول بضرورة أن يعيش الشاعر الحدث في عمقه الإنساني وأن ينقله في جماله الإنساني أيضاً، لكن ما بين مدى استيعاب هذه المصطلحات ومدى تحققها تكمن أسئلة نقدية وإبداعية كثيرة ما أظن مثل هذا التقديم الاختزالي فيها حقها، وإلا لكان قد تريت عند بعضها على الأقل بما يقتضيه التفكير النقدي والنظري من التعميق والتحليل والتوسع؛ لكنها سياسة التقديم والمقدمات التي تكتفي برمي الحجر في البركة مدعية أن ليس من شأنها ولا من مهامها أن تكون ديداناً كتيكية كاملة ولا أكاديمية مفصلة؛ وإنما يجوز لها أن تلفت الأنظار، وعلى القارئ أو المعني بالأمر أن يبحث عن كل ذلك ويستوعبه لكي يكون في مستوى التلقي المطلوب لمثل النص المقدم له. وإذا كان هذا التحايل الخطابية في المقدمات جائزاً من حيث تقنيات البناء، فما أظن نتائجه مقنعة أو تكون دائماً في صالح المقدم أو المقدم له، لأن ما يطرحه من مفاهيم ومن شروط ومن قضايا على ما فيه من إغراء وتشويق قد يحسب عليه مزايدة أو مغالطة أو ادعاء، وسيناقش بصده الحساب. وعلى أي فالفرقياني يصدر في تقديمه أو تظهيره هذا عن منطلقات يحكمها نسق سوسيولوجي مرجح، ولذلك غلبت في طروحاته فكرة "التحرر والتحرير" التي هي الموضوع المبدأ والشعار المقدس لدى التقدميين والشعبيين في تلك المرحلة، مرحلة أوج الصراع المتأجج بين

لكن الجمال منبثق في نظر الفرقياني - على ما يريد أن يفهمنا - من تجربته الحياتية أو النضالية، وهي نقط علينا كقراء أن نحسبها لصالحه وصالحها؛ وسوف نتعلم منها ونستمتع ونستفيد لأنها تجربة مطهرة بالمحن والامتحانات، وتابعة من صندوق الممارسة والإحساس، أو هكذا يريد التقديم أن يقدمها ويقنعنا بها، وهكذا نريدنا أن نفهمها ونعامل معها؛ فهي أجدر بأن تُسَر وتُذاع، والقارئ حري به أن يفهمها ويقدرها في سياق

ولادتها وملايسات إنتاجها وإنتاجيتها... واختيار السند الوطني والتاريخي والنضالي والانفعالي أو العاطفي في التقديم، اختيار استراتيجي في بناء هذا الخطاب رغم ما يريد أن يتشج به من تكتم وفنية وتلقائية يفضحها مثل قوله في الفقرة السادسة: "هذه إذن مجموعات شعرية أخرى متنوعة بتنوع الحياة، متعددة بتعدد المسارب التي مشيت والمجاري التي طويت كما ارتسمت على طبيعتها مع الأحداث، مع الوقائع، مع الأوضاع، مع الناس والحياة". (ص7) ومن الضروري والمطلوب طبعاً أن يمنح الشاعر من تجاربه ومن ثقافته ومن رؤاه، وذلك هو نسخ العملية الإبداعية وسر المبنى الشعري الذي يستمتع القارئ باكتشافه وتأويله؛ ولكن إذا طُلب منه أن يعرفه أولاً ويؤمن به قبلاً، فهي طبخة محروقة قبل نضجها ولعبة مكشوفة قبل بدايتها؛ وليس في ذلك كبير غناء للمقدم ولا للنص ولا للقارئ، لاسيما أن المقدم يصر على أنه صنف أشعاره بحسب الحدث أو القضية أو الموضوع وأن العنوان الجامع بينها هو "ديوان الوطن والحب... والسياسة". (المقدمة ص7) ولثقته الزائدة في القراءة والقراء أو في نفسه، فإنه يضيف في آخر التقديم قائلاً: "ولعلي أكون قد فتحت صدري في المراء الشمس، ووضعت جانباً من هواجسي أمام الأعين، وأملّي أن تكون كلماتي قد استطاعت أن تنقلني إليكم (والخطاب الآن بياء المتكلم وبالكاف المباشر) وعساها أن تملك أن تنقلكم إلي وأنثذ سأختمر في ذاتي ومع الآخرين مرتين، سأغوص في حقيقة نفسي وفي حقيقة الحياة من حولي غوصتين... سأعرف أكثر أن الحياة هي أخذ وعطاء... ورسالة، هي وصال وعلاقة وحوار". (ص8-9) وسواء أكانت النية حسنة أو مبيتة فهو يُقر أو يريد - ولو من باب المجاملة والتواضع الظاهري - أن تكون العملية الإبداعية عملية تواصل لكن ليس بالمعنى الذي تقتضيه نظرية التواصل أو التلقي من تشغيل ميكانزمات القراءة واستثمار إمكانات النص وتأويله؛ وإنما بالمعنى الذي يريد هو أيضاً أن يكون فيه متلقياً وقارئاً كما هو مرسل وكاتب، وتلك غاية أضل أنه يقترح خفية ومن وراء ستار أن يحققها له النقد الأدبي الذي عليه أن يتناول أعماله بالدراسة والفحص والتمحيص، ومن الوجهة التي يراها لتكتمل قيمتها وتثبت أحقيتها واستحقاقاتها المتبدية أو التي ينبغي أن تتبدى لكل ذي فهم وذوق ومعرفة.

إن الشاعر محمد الحبيب الفرقاني يحاول في هذا التقديم كما رأينا أن يقرن النسق الشعري أو الأدبي بالنسق السياسي والاجتماعي، ملوحاً بثيمة التحرر والالتزام التي ينبغي أن تقود القراءة كما قادت الكتابة والتي ينبغي أن تكون الفضاء المشترك الذي تتلاقى عنده جهود الكاتب والقارئ من أجل تفعيل النص الشعري وإبراز دوره الحقيقي والمؤثر في السيرورة التاريخية والاجتماعية والإنسانية وإلا كان حبراً على ورق و كان وجوده كعدمه...

وبالجملة فقد يكون من مستخلصات هذا التحليل أولاً أن المقدم لنفسه ربما يجد صعوبة كبيرة في الطرح الموضوعي وفي التخلص من شائبة العطف والتعاطف مع النص المقدم له؛ ومهما حاول من تلفيف أو تلفيق فهو واقع لا محالة تحت طائلة الذاتية الكامنة وراء بناء ذلك الخطاب؛ كما أنه يجد صعوبة في التطوير الذي يلبس لبوسه، والذي يحمله كثيراً من العنت النفسي والثقافي لأنه يقوم عنده على الأحكام المسبقة وعلى الاجتهاد في إيجاد الصيغ المبررة لها ليس أكثر؛ ويجد صعوبة أكبر في إقناع القارئ بما يقول، وربما تكون النتيجة

عكسية في بعض الأحيان، إذ أن شدة الحرص قد تؤدي إلى إثارة الشك والاحتراز. ولربما كان أحسن تقديم هو ألا يقدم، وأن يترك أشعاره تقدمه بدل أن يقدمها، فتكون لسان حاله لدى القراء، وتثبت له ولها ما هي جديرة بإثباته بنصها وفحصها لا بما يقال عنها ويراد لها أو بما يطلب منها ولها...

6. استنتاجات:

تشكل المقدمات نصاً أساساً من النصوص الموازية أو المساعدة للنص الأصلي؛ فهي تعلن عنه وتسوغه وتحدد مسار كينونته، وبهذا الاعتبار فهي ذات مواصفات خاصة في الطبيعة وفي البناء وفي الوظيفة، حيث تجمع بين المكونات البلاغية والإبلاغية لتحقيق عملية تواصل مثمرة ومتميزة تحمي النص وتغري بقراءته قراءة مدمجة، فتضمن له السريان والتقدير، ولذلك تحتاج إلى معرفة واسعة omniscience وحضور قوي omniprésence وفعالية كبيرة omnipotence. (11) وتتجمع لخطاب المقدمات كل مواصفات الخطاب وآلياته، بالإضافة إلى توفره على مقصدية خاصة في رسم استراتيجية محكمة للقراءة والإقراء والمقاربة والتقريب، وإقامة تداولية معينة للإنتاج والاستهلاك...ولهذا تتعدد أنواع المقدمات كما تتعدد وظائفها، فتكون للإشهار والتعريف كما تكون للتجنيس والتقويم أو الشرح والتأويل أو التبيه والترغيب أو ما إلى ذلك؛ ومن الممكن أن يجمع التقديم الواحد بين كل هذه المقاصد والوظائف ولذلك لا يمكن اختزاله دائماً في غاية معينة، وإنما هو قائم على منطق ربط الصلة بين فعل الكتابة ورد فعل القراءة، وضمان تحريك التفاعل الإيجابي بين عناصره وميكانزمات تلك...ولطبيعة خطاب التقديم التي وقفنا على بعض أسرارها، وكما يمكن أن يلاحظ في النموذج التطبيقي، فقد يجوز التبيه إلى ما قد يتضمنه هذا الخطاب من مراوغات لأنه يقوم على أساس من الادعاء أو الدعوى، بمعنى أنه يعد بأشياء في النص ترغيباً وتشويقاً، لكنه يغلّفها بدافع التواضع أو التحايل إلى درجة التكرار أو التكثير أحياناً، فيكون في ذلك شبيهاً بمفارقة خطاب القائل بأنه صادق في كذبه أو كاذب في صدقه، فإن صدقناه ثبت العكس وإن كذبناه ثبت العكس كذلك. وعليه فقد يكون خطاب التقديم مخطئاً في تأكيدات ومصيباً في إنكاراته والعكس صحيح، ولا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار ما قد يداخله من استعارات ومجازات وانزياحات قد تجعله مضعفاً أو مسكوناً بمفارقات يصعب على المنطق الصريح تجاوزها. كما أن كثيراً من المقدمات التي تدعي التوضيح أو التوجيه قد تزرع في ذهن القارئ نوعاً من الشك أو الغموض أو الحيرة في استقبال النص لأنها تجعل من المراوغة طريقته في الاشتغال ظناً أنها تكسبه بذلك هيبة وتشويقاً وخصوصية. وهنا نتذكر مفهوم التدمير في الكتابة عند "ديريدا J. Derrida" حيث يصير كل شيء بسببها غير يقيني أو غير قابل للإدراك بكيفية نهائية ومضبوطة. و إذن فالكثير من المعاني أو العبر التي يمكن استخلاصها من هذا الخطاب لا يمكن أن تؤدي إلا إلى إقحام النص المقدم له في إشكالية القراءة، أكثر مما تقدم أجوبة معقولة ومعقنة عنه. ولعل تذبذبه أو عدم استقراره على خط معين في الطرح هو نوع من النية المبيتة التي يمكن أن تأخذ القراءة منها نقطة انطلاقها، وهو الفرصة السانحة التي يهيئها الكاتب للقارئ بحق وصدق، وكأنه يقول له كما قال "رأبليه" أفعل ما بدا لك...

الهوامش:

(1 Michel Hausser: sur les titres de Grasq, in Julian Grasq-Actes du colloque international d'angers 21-24Mai 1981 P U 1982 p167 (2 Condillac: Du genre didactique- œuvres complètes Paris p 42

(3 G.Genette; Seuils , Paris 87 P 160

(4 H. Mitterrand; la préface et ses lois, in le discours du roman Paris 86 p 21

(5 Anne Cayuela; Le paratexte au siècle d'or, Prose romanesque...Genève 1996 p224

(6 G. Genette; Seuils... p218

(7 H.Mitterrand; op. Cit p193-194

J.Derrida;Hors livres:préfaces in la déssémination Paris 72 p15

(8 ينظر في ذلك مثلاً:

(9 H. Mitterrand:opcit p 22

(10 نقلاً عن H.Mitterrand op cit p32

(11 ينظر: G.Genette op cit p 194